

المقام في كتاب سيبويه

نسق معرفي توأصلي

♦ بشير إيرير (*)

مدخل الحديث:

نعالج في هذا الموضوع مفهوم المقام من حيث كونه نسقاً معرفياً توأصلياً متجذراً في التراث اللغوي العربي، يظهر ذلك في تصوّرات العلماء العرب القدامى وتجليّاته في أفكارهم، وفي ما أنجزوه من كتابات ونصوص ومصنّفات عديدة ميّزت عصرهم. ومنهم سيبويه في «الكتاب» الذي سنحاول استنطاق كثير من النصوص التي تضمّنها، والبحث في خباياها، ومحاولة معرفة أسسها المعرفية وسياقاتها المختلفة، اللغوية والاجتماعية والثقافية.

يظهر ذلك على مستويين:

الأول: مستوى البنية: بما يتضمنه من مستويات لغوية جزئية محققة لها مثل: المستوى الصوتي والمستوى الصرفي وما بينهما من تفاعل خاص، والمستوى النحوي التركيبي وما بينه وبين المستويين السابقين من تفاعل في تحقيق البنية اللغوية الشاملة. ولهذا علاقة - كما رأى عبد الرحمن بودرع - بـ «جهة الواضع اللغوي الذي أنتج نصوص اللسان العربي، وجهة المخاطب الموجهة إليه نصوص لسان العرب، وجهة الناظر الذي ينظر في تنزيل النصوص، ونظره هذا يختصر اللغة التوأصلية بما سبق...»^(١).

(*) قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة باجي مختار - عنابة.

(١) عبد الرحمن بودرع: مفاهيم نسقية توأصلية في النحو العربي: كتاب سيبويه نموذجاً، ضمن كتاب: التواصل وأنساقه المعرفية في التراث العربي - مفاهيم وقضايا ونماذج، منشورات مختبر الأنساق اللغوية والثقافية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب، ٢٠١٦، ص ٦٧.

وهي نظرة للغة من حيث جانبها الوظيفي الإعلامي الخطابي الشامل لكل عناصر التخاطب / التواصل: من متكلم ومخاطب ووضع مشترك بينهما code ومقام situation خاص يقتضي مقالا وسياقا contexte لغويا مناسباً. فقد جعل سيبويه «التركيب والأصناف الخطابية مرهونة بالأوضاع والمقامات التي حيكت حولها...»^(٥).

وكما تحدّث سيبويه عن الكلام المستغني الذي يحسن السكوت عليه؛ لأنه كلام مفيد مرتبط بمقامه ومقتضياته الاستعمالية، تحدّث أيضاً عن الكلام الذي لا يحسن السكوت عليه.

جاء في «الكتاب» قول سيبويه: «ولو قلت سوف زيداً أُضْرَبُ» لم يَحْسُنْ، أو «قد زيداً لقيت» لم يَحْسُنْ؛ لأنها إنما وُضعت للأفعال، إلا أنه جاز في تلك الأحرف التأخير والإضمار»^(٦).

فالنظر لهذا القول يجد سيبويه قد أكد على أهمية الوضع اللغوي المتفق عليه من الجماعة اللغوية، وصار مميزاً للسانها.

فلا يقبل الوضع بوصفه جملة من القواعد والقوانين اللغوية المشكلة للمعيار، بالقول: «سوف زيداً أُضْرَبُ»، أو «قد زيداً لقيت»، لأنها كما قال سيبويه: «إنما وُضعت للأفعال». فيحسُنْ أن نقول: «سوف أُضْرَبُ زيداً»، و«قد لقيت زيداً». وبهذا تكون سياقاً لغوياً يناسب مقامه اللازم. وكل ذلك؛ إنما مردهُ الأغراض التي يؤمُّها المتكلم والمقاصد التي يقصدها، والمقامات التي تحدّث فيها عملية التخاطب والظروف المحيطة بها.

وتحدّث سيبويه أيضاً عن مسألة مهمة في بناء نسق اللغة العربية وهي: «الإجراء على الموضوع».

(٥) دلّخووش جار الله حسين دزه بي: البحث الدلالي في كتاب سيبويه، دار دجلة ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، ط ١، ٢٠٠٦، ص ١٩٥.

(٦) سيبويه: الكتاب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، عالم الكتب، ط ٣، ١٩٨٣، ج ١، ص ٩٨.

الثاني: مستوى الخطاب: ويتعلق باستعمال اللغة في المقامات المتنوعة التي تقتضيها ظروف الكلام ومقاصده، وما ينتج عنها من خطابات مختلفة. ويتعلّق هذا المستوى بالمتكلم وبما يؤمُّه من أغراض كامنة خفية في كلامه، «ويدخل أيضاً في تقدير أهمية الجهات: جهة مقام الكلام وما يتصل بها من قضايا تداولية كالسياق والمقاصد وظروف الخطاب، على نحو ما بيّنه به النظرُ النحوي السيبويهي...»^(٧).

نشير -هنا- إلى العلاقة الوثقى بين مستوى البنية ومستوى الخطاب، أو بين مستوى الوضع والاستعمال؛ إذ المتكلم يوظف قوانين الوضع (اللسان) ومعطياته في ما تقتضيه مقامات الاستعمال من خطاب محدد، ويعبر عن أغراض ومقاصد محددة.

وربما لذلك لا يجد القارئ لكتاب سيبويه «مصطلح الجملة» ولا الجملة المفيدة^(٨)، ويجد الكلام المستغني الذي يحسُنْ السكوت عليه. لأنه كلام مفيد يحمل فائدة للسامع بما يضمن التفاهم بين المتخاطبين وتواصلهما معاً. إنّ الفائدة من الكلام تختلف عن معنى الكلام؛ فالمعنى يعرفه السامع، وأما الفائدة؛ فهي أن يفيد المتكلم السامع معنى يجهله، معنى جديداً عليه حسب المقام الذي يوجد فيه كلٌّ منهما والظروف المحيطة بهما.

قد يكون الكلام المستغني كلمة، وقد يكون جملةً، وقد يكون خطاباً. وكل كلام يحسن السكوت عليه، فهو يشكّل وحدة خطابية unité discursive تؤدّي وظيفة تواصلية بها تتم إفادة المخاطب. فد«الكلام المستغني أو الجملة المفيدة، هو أقل ما يكون عليه الخطاب، إذا لم يحصل فيه حذف...»^(٩).

(٧) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٨) ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: الجملة في كتاب سيبويه، مجلة المبرز، عدد ٣، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، جويلية-ديسمبر ١٩٩٣، الجزائر، ص ٨.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٠.

وذلك في قولك: «ليس زيد بجبان ولا بخيلاً»، و«ما زيد بأخيك ولا صاحبك». والوجه فيه الجرُّ؛ لأنك تريد أن تشرك بين الخبرين وليس ينقض إجراءه عليك المعنى... فالباء هنا قد دخلت على شيء لو لم تدخل عليه لم يُخلَّ بالمعنى، ولم يُحتجَّ إليها...»^(٧).

تتعلَّق المسألة هنا بقرب موضع الكلمة الثانية من موضع الكلمة الأولى فأجريت مجراها من العمل، وقد حملهم على ذلك كما قال سيبويه: «قرب الجوار»^(٨). «ألا ترى أنهم يقولون «حسبك هذا، وحسبك هذا»، فلم تغَيَّر الباء معنى. وجرى هذا مجراه قبل أن تدخل الباء؛ لأنَّ حسبك في موضع الابتداء»^(٩).

تظهر هذه الأمثلة التي قدَّمتها سيبويه مدى قدرته على الاستقراء والتتبع والمعاينة والوصف للظاهرة اللغوية في زمانه مقدِّماً الأمثلة الدالة الموضحة لما يقول. فقد استعمل ثلاثة مصطلحات هي:

- الإجراء على الموضع: وهو عملية يقوم بها المتكلم حسب ما يقتضيه السياق.

- الموضع: هو مكان العنصر اللغوي أو الكلمة في السياق.

- وقرب الجوار: هو التجاور بين العناصر اللغوية في السياق.

والقارئ للكتاب يجد سيبويه يتحدَّث عن مجاري الكلم^(١٠)، فالكلام يتخذ مجراه في مواضعه من السياق اللغوي الذي ينتظم فيه كما الماء يتخذ مجراه لا يحيد عنه.

يُسبِرُ سيبويه بهذا أسرار النظام اللغوي العام، وينفذ إلى أعماقه مبيناً «المنطق الذي يُحكِّم البناء النحوي العربي وما يتخلله من وصف وتأويل»^(١١).

لقد كان لسيبويه نظرة تحليلية عميقة للغة في جانبها البنوي الشكلي المشكَّل للنسق اللغوي في أصواته وكلماته وصرفه وتركيبه، وفي جانبها الخطابي الاستعمالي الإفادي المشكَّل للنسق المقامي في ظروفه وأحواله وملابساته التي تظهرها المشافهة بوصفها فاعلية تواصلية حية تتضافر فيها «الأنساق النظرية النحوية والبلاغية والأنساق الثقافية كالأعراف والأمثال وعموم القواعد التداولية الاجتماعية التي كان يصدر عنها المجتمع»^(١٢).

«قال المازني: سألت الأخفش عن حرف رواه سيبويه عن الخليل في «باب من الابتداء يضم فيه ما بُني على الابتداء»، وهو قوله: «ما أغفله عنك شيئاً؟» أي «دع الشك»، ما معناه؟ قال الأخفش: أنا منذ وُلِدْتُ أسأل عن هذا.

وقال المازني: سألت الأصمعي وأبا زيد وأبا مالك عنه، فقالوا: ما ندري ما هو.

فقال السيرافي: لم يفسر هذا الحرف فيما مضى إلى أن مات المبرد، وفسره أبو إسحاق الزجاج بعد ذلك فقال: معناه على كلامٍ تقدِّم، كأن قائلًا قال: ليس زيد بغافل. فقال المجيب: بلى ما أغفله عنك، انظر شيئاً؛ أي تفقد أمرك، فاحتجَّ به على الحذف، يريد حذف «انظر» الناصب شيئاً»^(١٣).

فالرجل لم يكن يهتم بالنصب والجر والضم فحسب؛ وإنما كان مدركاً إدراكاً كاملاً لما يدور بين المتكلم والمخاطب من حديث مبني بعضه على بعض، له خصائص تظهرها المشافهة ومقامات التخاطب وحيوية اللغة في الاستعمال، متمثلةً بمقاماتها اللازمة. ولعل هذا الذي استُغلق على الذين جاؤوا بعده كما جاء في النص السابق، لأنهم لم يدركوا أسرار السياق اللغوي ولم يتمثلوا العلاقة

(٧) الكتاب، ج ١، ص ٦٧-٦٨.

(٨) الكتاب، ج ١، ص ٦٧.

(٩) الكتاب، ج ١، ص ٦٧-٦٨.

(١٠) الكتاب، ج ١، ص ١٣-١٤.

(١١) عبد الرحمن بودرع: مفاهيم نسقية تواصلية في النحو العربي: كتاب سيبويه نموذجاً، ص ٦٧.

(١٢) عبد الرحمن بودرع: مفاهيم نسقية تواصلية في النحو العربي: كتاب سيبويه نموذجاً، ص ٦٧.

(١٣) الكتاب، ج ١، ص ٢٠-٢٥.

التخاطبية بين المتكلم والمخاطب التي أحدثت الخطاب: «ما أغفله عنك شيئاً»، في مقامه العاكس لسلوك المتكلمين داخل المجتمع، الظاهر في سلوك الكلمات داخل الكلم.

فإنَّ وراء اللفظ مقاصدَ وأحوالاً وظروفَ خطابٍ بها تُفهم ومنها يُبلَّغُ إلى معناها، وما أكثر ما نجد النحويين المتقدمين وعلى رأسهم «سيبويه» يستكثرون نية المتكلم لينزلوا عليها فهم المخاطب، أو ليرتبوا عبارات لسان العرب على سؤال سابق موطئ يُمكن المتلقي من فهم علل الكلام، كأن في هذا المنهج افتراض الكلام جواباً وتقديراً لبنية ذهنية، ماثلة خلف البنية اللفظية، كاشفة عن نية المتكلم وقصده إلى جهة في المعنى»^(١٤).

إنَّ المسألة هنا تتجاوز الإعراب؛ لأنه قدر مشترك بين الأعراب كلهم، وهو مما لا يستعان عليه بالرؤية، ولا يحتاج إلى حدة الذهن وقوة الخاطر كما قال «عبد القاهر الجرجاني»^(١٥)؛ وإنما المسألة تتعلق بنظر لغوي معرفي لظواهر التخاطب والمشافهة في قلب الحياة الاجتماعية، وما تقتضيه من أداءات متنوعة بين الجماعات اللغوية المختلفة مما يسوّغ لنا بأن نصنّف «الكتاب» ضمن لسانيات النص وتحليل الخطاب واللسانيات الاجتماعية في زماننا.

١- التوجُّه نحو المتكلم:

يلاحظ القارئ لـ «الكتاب» أن سيبويه كثيراً ما يوجّه كلامه إلى المتكلم باستعمال ضمير الخطاب ظاهراً أو مستتراً، من ذلك مثلاً: وإن قلت «رأيت رؤية العين»، أو «وجدت» فأردت «وجدان الضالة»، فهو بمنزلة «ضربت»، ولكنك إنما تريد بـ «وجدت» «علمت»، وبـ «رأيت» ذلك أيضاً»^(١٦).

(١٤) عبد الرحمن بودرع: مفاهيم نسقية تواصلية في النحوي العربي: كتاب سيبويه نموذجاً، ص ٦٨.
(١٥) ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، ١٩٩١، ص ٣٩٨.
(١٦) الكتاب، ج ١، ص ٤٠.

يؤدي المتكلم وظيفته في بناء الأقوال والخطابات البناء الصحيح الذي يستحقّه المقام، فيتخيّر الألفاظ المناسبة للسياق اللغوي، ويبين مسارات النشاط الدلالي في ذلك.

«لكونه المنبع الذي ينطلق منه الخطاب، والحافز الذي يثير كوامن المخاطب الفكرية؛ بحيث يخلق دورة خطابية متواصلة تحقق الغرض الإبلاغي والتجاوب الذهني»^(١٧) الذي من خلاله يُمكن التفريق بين ما هو ذهني مجرد وبين ما هو موجود حسي، كامن في «رأيت» و«وجدت». فإذا أراد المتكلم الجانبَ الذهني المجرد الذي يتعدى الرؤية العينية الحسية المباشرة إلى الرؤيا الذهنية المجردة جعل الفعلين «رأيت ووجدت» يتعديان إلى مفعولين اثنين، والعكس صحيح. والأمر نفسه بالنسبة للفاعل الذي يتعداه فعله إلى ثلاثة مفاعيل، ولا يجوز أن يقتصر على واحد دون الثلاثة^(١٨).

إنَّ تمام الفائدة اقتضى التعدية إلى مفعولين وثلاثة مفاعيل، والاقتصار على مفعول واحد لا يؤدي إلى إفادة المخاطب ما يؤمّه المتكلم.

قال سيبويه في هذا الشأن: «وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين ههنا أنك إنما أردت أن تبين ما استقرّ عندك من حال المفعول الأول يقينا كان أو شكاً. وذكرت الأول لتعلم الذي تضيف إليه ما استقر له عندك... فإنما ذكرت «ظننت» ونحوه لتجعل خبر المفعول الأول يقيناً أو شكاً، ولم تُرد أن تجعل الأول فيه الشك أو تقيم عليه في اليقين»^(١٩).

يمثّل المتكلم هنا بل وفي «الكتاب» برمته فاعلية تواصلية محرّكة لدورة التخاطب، صانعة لسياقاتها ومقاماتها موجّهة لعناصرها المختلفة، ومنها المخاطب السامع الذي لا تتم العملية إلا به بوصفه

(١٧) دلخوش جار الله حسين دزه يبي: البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص ١٩٤.
(١٨) الكتاب، ج ١، ص ٤١.
(١٩) الكتاب، ج ١، ص ٤٠.

شريكا أساسيا في ذلك. «والمشافهة لا تكون إلا من اثنين»^(٢٠).

وهكذا فإن المتكلم هو الذي له القدرة على استدعاء الأوضاع المستقرة في الذهن»^(٢١)، وإخراجها من الموجود بالقوة إلى الموجود بالفعل مراعيًا ما تقتضيه الألفاظ في تشكّلها بحسب المقاصد، وموافقتها لمقتضى الحال، والضوابط والقوانين التي وضعها الواضع بوصفه مشرّعًا وعلى المتكلمين الالتزام بما شرع من قوانين وما سنّ من ضوابط مميزة للسان الأمة.

جعل سيبويه بهذا النظر العميق «للمتكلم وظروفه ومقاصده أهمية في تحليل الخطاب ومدى كونه خارجًا عن الحدث اللساني أو جزءًا منه كما يذهب التداوليون»^(٢٢).

٢- التوجّه نحو المخاطب:

يعد المخاطب الشريك الأساسي للمتكلم في عملية التخاطب، ولا تحصل الفائدة من الكلام إلا بهما معًا؛ فالتكلم يبلّغ الرسالة/الخطاب بما تحمله من أغراض ومقاصد إلى المخاطب الذي يتلقاها ويعمل على فهمها وتحليلها وتأويلها موظفًا ما يملكه من معرفة متنوعة لغوية وغيرها؛ فبين المتكلم والمخاطب قدر مشترك في المعرفة، وبينهما أوضاع اصطلاحا عليها لا يعرفها غيرهما.

والقارئ لـ «الكتاب» يجد سيبويه قد اعتنى بالمخاطب عنايته بالمتكلم. ولا يمكن الشروع في عملية التخاطب إلا بما يظهره المخاطب من استعداد لتقبّل الخطاب وتلقّيه، وقد يكون ذلك - كما قال

(٢٠) الكتاب، ج ١، ص ٣٩٢.

(٢١) عبد الرحمن بودرع: مفاهيم نسقية تواصلية في النحوي العربي: كتاب سيبويه أنموذجًا، ص ٧٧.

(٢٢) علي حاتم الحسن: التفكير الدلالي عند المعتزلة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط ١، ٢٠٠٢، ص ١٢. نقلًا عن: دلخوش جار الله حسين دزه يي: البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص ١٩٤.

عبد الرحمن الحاج صالح- بإقباله على المتكلم، وقد حصل ذلك بالنداء^(٢٣). جاء في «الكتاب» قول سيبويه:

«إنما فعلوا هذا بالنداء لكثرت في كلامهم، ولأنّ أول الكلام أبدًا النداء إلا أن تدعه استغناءً بإقبال المخاطب عليك، فهو أول كل كلام لك به تعطف المتكلم عليك»^(٢٤).

يؤدي النداء هنا وظيفة لفت انتباه المخاطب إلى المتحدّث، وموضوع الحديث، ويفرغ الفضاء من كل تشويش ليصبح مقتصرًا على المتحدّث والمتحدّث إليه دون غيرهما.

ومن ناحية أخرى فإن النداء متواتر في كلام العرب، وهو أول الكلام. ولا يغني عنه إلا إذا أقبل المخاطب على المتكلم مباشرةً، فيصبح واضحًا مرئيًا مغنيًا عن كل كلام. «والنداء يحتاج إلى اختصار اللفظ؛ لأنه ليس هو الخطاب نفسه بل وسيلة لإيقاعه وتحصيله ويلجأ في ذلك إلى ما يسمّيه النحاة بالأصوات؛ أي ما لم يُصع على صيغة كلمة متمكنة وهي حروف النداء أولاً ثم بعض الكلم التي تسمى بأدوات الاستفتاح والتنبيه مثل: ألا وأما وغيرهما»^(٢٥). ويحتاج في كل هذا إلى ضرورة اشتراك المتخاطبين في معرفة المواضع code التي هي عنصر أساسي في مكونات التخاطب؛ فمن الضروري أن تكون بينهما شراكة في معرفة وضع اللغة بوصفه قوانين ومعايير لسانية اتفقت عليها الجماعة.

وقد تكون أوضاعًا أخرى غير لغوية تقتضيها سنن العرب في كلامها، من أعرافٍ وحجَمٍ وأمثال ومواضع اجتماعية، تُظهر النسق الثقافي

(٢٣) عبد الرحمن الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، سلسلة علوم اللسان عند العرب (٣)، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، رغبة، الجزائر، ٢٠١٢، ص ٥١.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٢٥) المرجع نفسه، ص ٥١.

وتنوعاته وقِيَمه التداولية المختلفة. وقد حفل كتاب سيبويه بكثير من هذا حتى لكأنني به عالمٌ لساني اجتماعي متخصص.

٣- القرائن المقالية والحالية والتجوُّز والاتساع:

تتعلق القرائن المقالية بالسياق اللغوي *le contexte linguistique* وتتعلق القرائن الحالية بالمقام *situation* وعلاقتها ببعض وطيدة وثيقة، فيقتضي المقامُ المقالَ المناسب، ولا قيمة للمقال بدون مقام، فذلك يُعد لغوًا.

تُعد دلالة الحال وغيرها من الدلالات غير اللفظية في التخاطب من أهم مكوّنات المقام، فلا يفهم الكلام بوصفه لفظًا ووصفًا مجردًا إلا بها، وبخاصة إذا اعتراه الاتساع؛ فإذا تجرّد تماما من كل دلالة أخرى غير الدلالة الوضعية التي لا تخرج عن حدوده استغلق على السامع ولم يدرك مقاصد المتكلم منه^(٢٦)، وبالتالي فهو يحتاج دلالات أخرى غير الدلالة الوضعية *la dénotation* مما يتعلق بالدلالة العقلية أو المجازية *la connotation*، حيث تتضافر فيها القرائن المقالية والحالية وتتسع لتحصل المعنى *le sens*.

يذهب سيبويه بعيداً في إدراكه لأهمية الأنظمة الأخرى غير اللغوية في فهم الظاهرة اللغوية؛ من ذلك قوله:

«ذلك أنك رأيت صورةً شخصٍ فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت: «عبد الله وربّي»، كأنك قلت: «ذاك عبد الله» أو «هذا عبد الله»، أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت فصار آيةً لك على معرفته، فقلت: «زيد وربّي»، أو مسست جسداً أو شممت ريحاً فقلت: «زيد، أو المسك»، أو ذقت طعاماً فقلت: «العسل»^(٢٧).

يلاحظ القارئ لهذا النص إدراكاً عميقاً من سيبويه لأنظمة العلامات الدالة في نسقها السيميائي، فتوجد آيات، أي علامات إيقونية دالة على المعاني والدلالات المقصودة.

- فصورة الشخص علامة/آية كما في «الكتاب».
 - والصوت علامة إيقونية دالة على صاحبها من دون رؤيته.
 - واللمس لجسم ما بارد أو ساخن علامة إيقونية مميزة له.
 - والشم لرائحة ما عطّرة منعشة أو كريهة منقّرة علامة إيقونية مميزة محددة لها.
 - والذوق لطعام ما: هو أيضا يمثل علامة دالة على نوعية الطعام ولذّته.
- وكلها علامات تنتمي إلى النسق السيميائي الإيقوني.

ويُعد هذا من أهم الركائز في الدراسات السيميائية والتواصلية المتعلقة بدراسة النصوص وتحليل الخطاب من هذه الناحية. وكل هذا يؤكد النظر العلمي العميق للغة من مختلف جوانبها من لدن سيبويه مما يُعد -في نظري- سابقاً لعصره، ومؤسساً للدراسات السيميائية في زماننا. وعلينا أن نعرف كيف نقرأ وبأية عين نقرأ؟ إنَّ الدارسين واللسانيين والسيميائيين والتداوليين والمتخصصين في علم الدلالة وتحليل الخطاب يوافقون ما توصّل إليه سيبويه في القرن الثاني الهجري.

ولم تكن اللغة -كما ذهب نهاد الموسى- تنفك عن ملابسات استعمالها ومقاييس اللغة عنده [يقصد سيبويه] تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي التي تكتنف الاستعمال اللغوي^(٢٨).

يجد القارئ لكتاب سيبويه توضيحه العوامل

(٢٨) نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص ٩٠.

(٢٦) الكتاب، ج ١، ص ٣٩٢.

(٢٧) الكتاب، ج ٢، ص ١٣٠.

التي أدت الناطقين باللسان العربي إلى اتباع الحذف، وهي: طلب الخفة على اللسان واتساع الكلام والاختصار رابطاً كل ذلك بعلم المخاطب، متحدثاً عند الحذف بجميع أنواعه.

يقول عبد الرحمن الحاج صالح: «أمّا علم المخاطب عند سيبويه كنوع من القرائن، فهو كل ما يعلمه المخاطب مما يساعده على فهم الخطاب، وكل علم تحصّل عليه منذ عهد قريب أو بعيد، وهو أيضاً كل المعلومات العامة -البدئية منها والمكتسبة- التي تحصّل عليها منذ نشأته بالتجربة وكل ما يستنتجه من هذه البدئيات بالنسبة لمضمون الخطاب.

وكثيراً ما يفسر ظواهر الاتساع بعلم المخاطب ويريد بذلك رجوعه إلى هذه البدئيات العقلية...

وهو أيضاً علمه بمواضع الكلم في الكلام فهو علم بحدود الكلام، ومواقع عناصره، وهو مما اكتسبه ويدخل في ملكته اللسانية، وهو علمه غير النظري باللغة وكيفية استعمالها ودرجة إجادتها... وعلم المخاطب هذا يقتزن به اللفظ أيضاً لأنه مما اختزنه في ذاكرته ومثل ذلك كل ما جرى في الفكر»^(٢٩)

يُبرز هذا النص المهم الذي كتبه عبد الرحمن الحاج صالح -رحمه الله- أهمية علم المخاطب باعتباره مفهوماً أساسياً في كتاب سيبويه، يجمع بين ما هو لغوي متمثل في المعرفة بمواضع الكلم في الكلام، وعلمه بحدوده ومواقع عناصره في السياق اللغوي.

وبين ما هو غير لغوي متمثل في المعرفة بطقوس الممارسات الاجتماعية التي حصّلها بالتجربة.

ويُسهمان معاً في بناء التواصل بين المتكلم والمخاطب ومدّ جسوره حسب مقتضيات أحوال الخطاب ومقاماتها المتنوعة. ولعل ما أشار إليه «هاليداي Halliday» تلميذ «فيرث Furth» عن

تصنيف الأغراض والوظائف التي تؤديها اللغة، يُشبه إلى حدّ كبير ما تناوله سيبويه في الكتاب منذ القرن الثاني الهجري.

فقد تحدّث هاليداي عن الوظائف الآتية:

- الوظيفة التجريبية: وتظهر في الاستعمالات المختلفة؛ فتكون حول مقاصد محددة متعلقة بتمثيل تجربة المتكلم في سياق ثقافي واجتماعي محدد.

- الوظيفة النصية: وتعكس قدرة المتكلم على بناء الخطابات وفهم النصوص ونقدها بالنظر إلى سياقها اللغوي.

- الوظيفة التواصلية: وتتصل بالتعبير عن العلاقات الاجتماعية بين المتحدثين، ويتم فيها تحديد المتكلم ووضعه وأحكامه والعوامل المتحكمة في حديثه وعلاقاته مع من يخاطب أو يحدث.

ومن كل هذا الذي ذكره سيبويه فيما يتعلّق بتجربة المخاطب اللغوية وغير اللغوية؛ أي: «- ما يرى المخاطب من الحال (مشاهدة الحال بعده).

- ما جرى من الذكر (أو ما كان قبل ذلك الكلام).

- علم المخاطب السابق»^(٣٠).

يتم إدراك المقام لتفسير ظواهر التخاطب لدى النحاة الأولين.

تُعد الخفة على اللسان واتساع الكلام والاختصار ظواهر بلاغية بالمفهوم القديم، وظواهر تداولية مهمة بالمفهوم الحديث، ومما جاء في «الكتاب» بشأنها ما نقرأه:

«هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار؛ فمن ذلك أن تقول على قول السائل: «كم صيدَ عليه؟» وكم غير ظرفٍ لما ذكرتُ لك من الاتساع والإيجاز؛ فتقول:

(٣٠) عبد الرحمن الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص ٥٥.

(٢٩) عبد الرحمن الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص ٥٧.

وبلغة طه عبد الرحمن يتحقق فيه نفع الاختصار^(٣٥)، فيعبرُ بالقليل من الألفاظ عن الكثير من المعاني حسب حاجة المخاطب من حيث الصياغة اللغوية، ومن حيث فحوى الخطاب، بما يجنبه آفة الإلتعاب والإجهاد. ويُعد هذا بابًا تداوليا خالصا. ولعلنا - كما قال إدريس مقبول- لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا «الكتاب» عملا تأسيسيا لتداولية يمكن الاضطلاع عليها بتداولية الاتساع والتجوز^(٣٦)، ويُعد المقام في كل هذا أساسا تداوليا بلاغيا ونسقًا معرفيا لآليات التواصل في الخطابات والنصوص، مشافهة وتحريرا.

لقد تطرّق سيبويه إلى كل العناصر المتعلقة بالتخاطب: من متكلم ومخاطب ووضّع مشترك بينهما وخطاب يتبادلانه بما يميزه من سياقات لغوية مختلفة، ومقام تخاطبي يجمعهما بما يشمله من قرائن مقالية وحالية وملابسات متنوعة. تشترك هذه العناصر كلها في تبين «المراد من الكلام»^(٣٧).

وأذهب إلى أن لكل عنصر من هذه العناصر المتألفة المتآزرة وظيفة خاصة به.

فالمتكلم يحقق الوظيفة التعبيرية la fonction expressive بما أنه يعبر عن أغراضه ويبلغ مقاصده.

والمخاطب يحقق الوظيفة الإفهامية الفهمية la fonction cognitive بما أنه يتلقى ويحلل ويفهم ويرد الفعل حسب مقتضى حال الخطاب.

والوضع المشترك بين المتكلم والمخاطب le code يحقق وظيفة اللغة الواصفة الشارحة la fonction

(٣٥) ينظر: طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ٢٠١٢، ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٣٦) ينظر: إدريس مقبول: الأسس الإستيمولوجية والتداولية للتطور النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٦، ص ٣٨٢.

(٣٧) عبد الرحمن الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص ٦٠.

«صيد عليه يومان»، وإنما المعنى: صيد عليه الوحش في يومين. ولكنه اتسع واختصر، ولذلك وضع السائل «كَمْ» غير ظرف^(٣٨).

نشدد في هذا النص على أهمية مفاهيم المصطلحات التي استعملها سيبويه وهي: الاتساع والإيجاز والاختصار؛ أي الاتساع في المعنى والاختصار في اللفظ، أو قول المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة اقتصادا في الجهد ومراعاة للخفة في الخطاب مما يعني أن اللغة تتسع لوجوه المعاني وتستحيل إلى بنية مولدة للمعاني وأن المعنى هو بالأساس نشاط لغوي^(٣٩).

ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]. إنما يريد أهل القرية، فاختصر وعمِل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل...^(٤٠).

«ومثله في الاتساع: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: ١٧١] فلم يشبهوا بما ينعق وإنما شبهوا بالمنعوق به. وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب»^(٤١).

يُعد هذا النص مثالا للتحليل اللغوي في مستواه البلاغي وهو حاصل تفاعل المستويات الصرفية والصوتية والمعجمية والتركيبية، ركّز فيه سيبويه على إمكانية اللغة وما تحققه من لطائف بلاغية يتسع بها المتكلم في معاني خطابه وجوها متعددة متنوعة بالقليل من الألفاظ حسب ما يقتضيه المقام من المقال.

(٣٨) الكتاب، ج ١، ص ٢١١.

(٣٩) ينظر: علي حرب: الحقيق والمجاز: نظرة لغوية في العقل والدولة، دراسات عربية، عدد ٦، دار الطليعة، لبنان، ١٩٨٣، ص ٣٨.

(٤٠) الكتاب، ج ١، ص ٢١٢.

(٤١) الكتاب، ج ١، ص ٢١٢.

واستعمالاتها اللغوية المناسبة.
فأساليب الإخبار تقتضيها مقامات محددة،
تختلف كثيراً أو قليلاً عن أساليب الإنشاء من طلب
وأمر واستفهام ونداء ودعاء وغير ذلك. وتأسيساً
على هذا تُبنى أنماط من الخطاب منها:

- النمط الوصفي.
 - النمط الإخباري السردى.
 - النمط الحجاجي البرهاني.
- نشير إلى أن هذه الأنماط من الخطاب مترابط
بعضها ببعض وما الحديث عن كل نمط وحده إلا
زيادة في التوضيح.

٤-١- النمط الوصفي:

يلاحظ القارئ للكتاب قدرة سيبويه على الوصف،
فلغته لغة علمية واصفة *métalinguistique*
تشتغل على الأمثلة الكثيرة الموضحة الشارحة
للقضايا اللغوية المختلفة، وتشتغل على المفاهيم
والمصطلحات الدالة عليها التي حفل به «الكتاب».
وغرضها الأساسي التوجه إلى المخاطب لإفهامه
محتوى الخطاب.

ضمّن سيبويه كتابه مصطلحات ومفاهيم كثيرة
بنى عليها جهازه النظري في معالجته لقضايا اللغة
العربية نذكر منها على سبيل المثال: علم العربية وهو
المفهوم الأساس الذي تتشابه حوله بقية المفاهيم
وتتضافر في بناء النظرية اللغوية العربية من حيث
الصرف والصوت والمعجم والتركيب، وكل الظواهر
اللغوية المتعلقة بالسياق اللغوي، بالنظر إلى علاقته
بالمقام وما يقتضيه من استعمالات محددة.

كما نذكر: الخفة - الاختصار - الإيجاز - علم
المخاطب - حال المشاهدة - حال الحديث - الحديث
- المتحدّث - المتحدث به - المتحدث عنه - المتحدث
إليه - حال الخطاب - المقام - الخبر - المخبر عنه
- المخبر به - مجاري الكلام - ما جرى من الذكر
- الاتساع - الخفة - التجوُّز - المتكلم - المخاطب

métalinguistique وما أكثرها في كتاب سيبويه.
والخطاب يحقق الوظيفة المتعلقة بالسياق
اللغوي؛ أي الوظيفة الشعرية *la fonction*
poétique كما سماها ياكبسون أو الأدبية، واقترح
أن تسمى السياقية في هذا المقام.

والمقام يحقق الوظيفة المرجعية *la fonction*
référentielle، وأزعم أنها من أهم الوظائف في
«الكتاب».

وتبقى الوظيفة الانتباهية التوكيدية *la fonction*
phatique وتحققها أدوات لغوية عديدة مثل النداء
وأدوات الاستفتاح وغيرها.

وبهذا نكون أمام نظرية تداولية تواصلية خالصة
في الكتاب^(٣٨) تحركها كل هذه العناصر التي تمّ
ذكرها وأهمها المقام.

٤- أغراض الخطاب وأنماطه:

يضمّن المتكلم خطاباً أغراضاً اقتضاها المقام،
واقترض بدورها، سياقاً لغوياً محدداً يبلغ بواسطته
مقاصده، وينتج عن ذلك أنماطاً من الخطاب لكل
منها سمات تحدده وتبيّن خصوصياته بالنظر إلى
الأنماط الأخرى.

تكمن هذه الأغراض خلف ما نسميه أساليب الخبر
والإنشاء في البلاغة العربية، وهي مسألة تتجاوز
كونها شائعة في الخطاب التعليمي وما يقتضيه من
تبسيط وتوضيح بغية إفهام المتعلم المبادئ الأساسية
في البلاغة، إلى كونها مسألة مهمة من صميم
التحليل اللغوي الجامع بين النحو والبلاغة وبين
قضايا التخاطب والتواصل حسب مقاماتها المتنوعة

(٣٨) قد يوصف هذا بالتمخّل وتحميل النصوص ما لا
تحتل، ولكن المتأمل بدقة ووعي يجد هذه النصوص ناطقة
بالقوة وبالفعل بمثل هذه المسائل التي كثيراً ما نصف العرب
بعدم إدراكها، وأنها غير موجودة في لغتهم. إذا كان القصد
العرب المعاصرين فذلك مقبول، أما إذا تعلّق بالعلماء القدامى
فلا يصح في نظري.

- الاستقامة - الكلام المستحسن - الكلام المحال -
المستقيم الحسن - المستقيم المحال - الكلام المستغني
الذي يحسن السكوت عليه - الإجراء على الموضوع -
الابتداء - الباب - المثال - المشافهة - الكلام - القول
- الحركة - السكون - المبني والمبني عليه - المسند
والمسند إليه - المدح - الذم - الانحدار - الإصعاد -
الضم - الفتح - الجر - الإعراب...

وغيرها مما يمكن أن يكون معجماً خاصاً بالكتاب
يتم تصنيف مداخله وترتيبها ودراساتها، فمنها ما
يتعلق بالأصوات ومنها ما يتعلق بالصرف والنحو
والمعجم ومنها ما يتعلق بخصوصيات كلام العرب
وسُننِه وأعرافه حسب البيئة اللغوية والاجتماعية،
ومنها ما يتعلق بالاستعمالات المختلفة.

فعلى هذا الجهاز الاصطلاحي المفهومي أسس
سيبويه أوصافه للسان العربي، وقد تميزت بالدقة
المتناهية في ذلك، والأمثلة كثيرة؛ إذ الكتاب كله
وصف في الحقيقة، ويمكن أن نذكر في هذا المقام
باب الإدغام في الجزء الرابع من الكتاب، وكيف
وصف الظواهر الصوتية باقتدار ودقة مثل: وصفه
لمخارج الحروف وصفاتها، وظواهر أخرى مثل:
الإبدال والقلب والتخفيف والإمالة والإشمام والرؤم
واختلاس الحركات والإخفاء^(٣٩)، وكلها جديرة
بالبحث والقراءة المتأنية؛ لأن الصوت نبض النص.
وعقد باباً سماه: الاستقامة من الكلام والإحالة،
وصف فيه مستويات الكلام من حيث الحسن
والقبيح والاستحالة.

قال: «... فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم
كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب»^(٤٠).
فقد عرض القضية هنا ووصفها وبين مستوياتها،
ثم راح يقدم أمثلة أخرى موضحة مفسرة شارحة
واصفة من أجل بيان رأيه للمخاطب.

قال: «فأما المستقيم الحسن فقولك: «أتيتك أمس،
(٣٩) ينظر للمزيد من التوضيح لهذه القضايا: بشير إبرير:
بحوث ودراسات في علوم اللغة العربية، دار الكتاب الحديث،
إربد، الأردن، ط ١، ٢٠٢٠.
(٤٠) الكتاب، ج ١، ص ٢٥.

وسأتيك غدا».

وأما المحال، فأن تنقض أول كلامك بآخره:
«أتيتك غدا، وسأتيك أمس».

وأما المستقيم الكذب فقولك: حملتُ الجبل،
وشربت ماء البحر، ونحوه.

وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير
موضعه نحو قولك: «قد زيدا رأيتُ، وكبي زيدا
يأتيك»، وأشباه هذا.

وأما المحال الكذب فأن تقول: «سوف أشرب ماء
البحر أمس»^(٤١).

يلاحظ القارئ لهذه الأمثلة التي قدمها سيبويه
قدرته على الاستقراء والوصف وإفهام المخاطب
بالحديث إليه ومخاطبته وكأنه يراه رؤية العين
المباشرة، وهو يتعامل مع السياق اللغوي الصحيح
من حيث التركيب والمعنى، أو من حيث التركيب
وحده، أو من حيث الاستحالة تماماً.

ذهب الأستاذ إدريس مقبول بخصوص هذا
التقسيم وبخاصة «الوصف بالحسن والقبح
للمستقيم إلى أن سيبويه متأثر فيه بمذهب المعتزلة،
إذ وضع الشيء في غير محله الذي وسَم به سيبويه
المستقيم القبيح يرجع لما تعارف عليه المعتزلة من
أن للنسق والنظام سلطة ابتداء من الذي لا ينقسم
وصولاً إلى الكون الحادث على اتساعه وامتداده،
ونسقيته هي مظنة حُسْنِه، ولولاها لكان للقبح
مدخل في فعل واجب الوجود الذي تنزّه عن النقص،
كما أن القول باختصاص الحوادث بمواضع لها على
ترتيب معلوم هو من لوازم هذا النظر الكلامي»^(٤٢)
من الناحية الإبتيمولوجية.

(٤١) الكتاب، ج ١، ص ٢٦.

(٤٢) ينظر إدريس مقبول: الأسس الإبتيمولوجية
والتداولية للنظر النحوي في كتاب سيبويه، ص ٢٢٨-٢٢٩.
ونشير إلى أن إدريس مقبول قد أحال إلى القاضي عبد الجبار
أبي الحسن (ت ٤١٥ هـ) صاحب «المغني في أبواب التوحيد
والعدل» زيادة في الإفادة.

٤-٢- النمط الإخباري:

ويطلق عليه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح صفة «الإعلامي»، ويرتبط بالفائدة من الخبر الذي يتوجه به المتكلم نحو المخاطب قصد إفادته أخباراً أو معلوماتٍ جديدةٍ عليه لم يسبق له معرفتها؛ أو لا تفيده معرفته السابقة في إدراك محتواها.

فمثلاً إذا قال الرجل: «النار محرقة أو الثلج بارد»، فهذا معروف ولا يحمل إفادة للمخاطب. قال عبد الرحمن الحاج صالح في هذا المقام: «... فالتخاطب لا ينحصر فيما يتناقله المتخاطبان في مضمون الكلام الدلالي بل أيضاً في مضمونه الخبري الإفادي وهذا هو المقصود من كل كلام أيا كان وهو تبليغ الأخبار والأغراض»^(٤٣).

جاء في «الكتاب» القول الآتي لسيبويه:

«واعلم أنّ «قلت»، وقعت في كلام العرب على أن يُحكى بها، وإنما تحكي بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً، نحو قلت: «زيد منطلق»؛ لأنه يحسن أن تقول: «زيد منطلق»، ولا تدخل «قلت»... وما لم يكن هكذا سقط القول عنه.

وتقول: «قال زيد إن عمراً خير الناس»، وتصديق ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] ولولا ذلك لقال: أن [الله]»^(٤٤).

فقد أخبر -هنا- عن السياق اللغوي الذي تستعمل فيه «قلت» وتكسر بعدها همزة «إن»، وأخبر أيضاً عن المقام الذي يقتضيها مستعملاً الفعل «اعلم»، دلالة على التأكد من الأمر والثقة فيما يعلم عن المسألة مستدلاً بالآية الكريمة.

ويخبرنا سيبويه خبراً آخر وهو قوله: «وحروف

الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل إلا أنهم قد توسعوا فيها... وإنما فعلوا ذلك بالاستفهام لأنه كالأمر في أنه غير واجب، وأنه يريد [به] من المخاطب أمراً لم يستقر عند السائل»^(٤٥).

وكذلك قوله: «واعلم أن حروف الاستفهام كلها يقبَح أن يصير بعدها الاسم إذا كان الفعل بعد الاسم...»^(٤٦).

بدأ سيبويه قوله في النص الأول هكذا: «وحروف الاستفهام كذلك لا يليها إلا الفعل...» وكأنه تابع لكلام سابق تم سرده والإخبار به. وفحوى الخبر: أنّ الفعل هو الذي يلي حروف الاستفهام وليس الاسم. وبدأ القول الثاني هكذا: «واعلم أن حروف الاستفهام كلها يقبَح أن يصير بعدها الاسم...» فهو هنا يقدم للمخاطب خبراً مفصلاً فيه، عليه أن يتخذ قاعدة يوظفها في اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة في السياق اللغوي الصحيح. ولا يمكن القول: «هل زيد منطلق؟»، و «هل زيد في الدار»، و «هل زيد أخذ»، ويقبَح إن قلت: «هل زيد رأيت؟»، و «هل زيد ذهب؟».

وإنما الإسناد الصحيح أن نقول: «هل رأيت زيدياً؟»، و «هل ذهب زيدي؟»، و «هل قام زيدي؟». وقد أشار سيبويه إلى أن الضرورة الشعرية قد تبيح ذلك أحياناً. واستثنى الألف؛ لأنه «قد يبتدأ بعدها الاسم ويجوز فيها النصب والرفع»^(٤٧).

وأخبر سيبويه مخاطبه (المباشر أو القارئ للكتاب) بأن «الاستفهام في أسماء الفاعلين والمفعولين يجري مجرى الفعل»^(٤٨) مقدّماً أمثلة دالة، وذلك قولك: أزيدي أنت ضاربُه، وأزيدي أنت ضاربُ له، وأعمراً أنت مُكرِم أخاه، وأزيدي أنت نازل عليه، كأنك قلت: أنت ضاربُ، وأنت مُكرِم، وأنت

(٤٥) الكتاب، ج ١، ص ٩٩.

(٤٦) الكتاب، ج ١، ص ١٠١.

(٤٧) الكتاب، ج ١، ص ١٠١.

(٤٨) الكتاب، ج ١، ص ١٠٨.

(٤٣) عبد الرحمن الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في

نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص ٧٠-٧١.

(٤٤) الكتاب، ج ١، ص ١٢٢.

يعد النمط الحجاجي البرهاني^(٥٢) نوعاً مهماً من أنماط الخطابات والنصوص التي تمارس حضورها في «الكتاب»، وتعد الأبحاث بشأن هذا النمط امتداداً للموروث البلاغي، وهو أيضاً حقل دراسي جديد تم استثماره في دراسة النصوص وتحليل الخطاب في اللغات الأجنبية فيما يتعلق بالدراسات التداولية، ولا يعد غريباً عن الدراسات العربية القديمة في وجهها البلاغي بصفة خاصة.

والهدف من هذا النمط من الخطاب، هو الإقناع وحمل المخاطب على الاعتقاد بالرأي، والتأثير عليه بتقديم الأدلة والبراهين المختلفة. يمكن أن نتحدث في هذا الشأن عن أساليب الإنشاء وما تمثله من أصناف تندرج ضمن الطلب مثل: الاستفهام والأمر والنهي والدعاء.

«وقد ذكر سيبويه أن الأفعال الواقعة في سياق الاستفهام هي الأفعال غير الواجبة التي تكون بعد حروف الاستفهام، وذلك لأنك تقول «أعلمني» إذا استفهمت وهي أفعال غير واجبة فصارت بمنزلة الأمر والنهي وكذلك الدعاء»^(٥٣) نقرأ في «الكتاب»:

«هذا باب الاستفهام يكون الاسم فيه رفعا، لأنك تبتدئه لتتبه المخاطب، ثم تستفهم بعد ذلك. وذلك قولك: «زيد كم مرة رأيت»، وعبد الله هل لقيته، وعمرو هلاً لقيته»، وكذلك سائر حروف الاستفهام؛ فالعامل فيه الابتداء. كما أنك لو قلت:

(٥٢) توجد فروق بين الحجاجي والبرهاني، فالحجاجي يوجب وجود طرفين حاضرين يتنازعان الرأي، وليس هذا هو المقصود من المصطلح، بل إن المتكلم الحاضر واحد في أغلب الأحيان يسعى إلى إقناع مخاطب متخيل بموقف أو فكرة، والتأثير عليه. للمزيد من المعلومات ينظر: عبد القادر بوزيدة: نموذج المقطع البرهاني (أو الحجاجي)، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، عدد ١٢، ديسمبر ١٩٩٧، ص ٣٢٦ في الهامش.

(٥٣) ينظر: دلخوش جار الله حسين دزه بي: البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص ١٩٩.

نازل». كما كان ذلك في الفعل، لأنه يجري مجراه ويعمل في المعرفة كلها والنكرة، مقدماً ومؤخراً، ومظهراً ومضمراً»^(٤٩).

كل هذه الأمثلة إنما تبين لنا السياقات اللغوية المتنوعة المرتبط بوظيفة الإسناد وما تؤديه من دور في التواصل بين المتكلم والمخاطب؛ من حيث إنشاء الكلام وتلقيه وتحقيق الإفادة. فلكي يكون الكلام مفيداً لا بد أن يكون في سياقه اللغوي الصحيح، وبذلك يكون مناسباً لما يقتضيه مقام التخاطب. يرى إدريس مقبول أن الإسناد عند سيبويه يمثل «أحد أسس اكتمال العملية التواصلية في بعدها التداولي، لتوقف تمام الفائدة عليه من جهة ولحاجة المخاطب في وضعه الانتظاري إعلامه بما تتوقف عليه الفائدة»^(٥٠).

كما أكد الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح على ما اتصف به تحليل سيبويه للجانب الإخباري الإعلامي الإفادي من العمق وما يترتب على ذلك من حقائق أثبتتها في زماننا الدراسات المتعلقة بنظرية الإعلام *la théorie de l'information*. فنظرة سيبويه للنحو لا تخص النحو بمعناه الضيق الذي عرفه المتأخرون من النحاة، وإنما يشمل كل ما هو تبليغ وتواصل^(٥١).

٤-٣- النمط الحجاجي البرهاني:

سبقت الإشارة في الحديث عن النمط الوصفي إلى أن لغة سيبويه في «الكتاب» لغة علمية واصفة *métalinguistique*، وبما أنها كذلك فإنها تحتاج إلى الحجة والبرهان على ما تقول.

(٤٩) الكتاب، ج ١، ص ١٠٨.

(٥٠) إدريس مقبول: الأسس الإستيمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص ٣٥٢.

(٥١) عبد الرحمن الحاج صالح: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص ٧٢.

«أرأيتَ زيدا هل لقيته» كان «أرأيت» هو العامل، وكذلك [إذا قلت علمتُ زيدا لقيته، كان «علمتُ» هو العامل] هنا. فما بعد المبتدئ من هذا الكلام في موضع خبره^(٥٤).

فقد عرض سيبويه هنا القضية وهي: كيف يكون الاسم رفعا في باب من أبواب الاستفهام، ثم بعد ذلك يشرحه ويفسره مقدما الأمثلة الدالة على ذلك مقلبا إياها على أوجه كثيرة بحسب مقامات الاستعمال التي تقتضيها. وهذه ميزة واضحة في «الكتاب» محاولا إقناعه، ساعيا إلى أن يقاسمه الرأي والتصوير عن الموضوع، بتقديم الحجة والبرهان اللازمين مستعملا الروابط الحجاجية اللازمة مثل ما جاء في هذه المسألة: «لأنك تبتدئه لتنبه المخاطب...»، فنلاحظ الوظيفة التي تؤديها «لأن» في «لأنك» مقرونة بكاف الخطاب، والوظيفة التي تؤديها «ل» في «لتنبه المخاطب» فتكون العبارة كلها: «لأنك تبتدئه لتنبه المخاطب» محققة للوظيفة الانتباهية لدى المخاطب، التي يتأسس عليها بعد ذلك الاستفهام في قوله: «ثم تستفهم بعد ذلك». فالانتباه يسبق الاستفهام ونلاحظ الدور الذي يؤديه الرابط «ثم» في الترتيب من حيث زمنه، ثم تأتي بعد ذلك الأمثلة بوجوهها المختلفة معضدة للحجة أو البرهنة، وهكذا فإن سيبويه يتكلم غالبا في «الكتاب» «من أجل البرهنة»^(٥٥).

كما أشار سيبويه إلى «باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل.

وذلك قولك: «أتميميا مرةً وقيسياً أخرى». وإنما هذا أنك رأيتَ رجلا في حال تلون وتنقل فقلت: «أتميميا مرةً وقيسياً أخرى». فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له. وهو عندك في تلك الحال في

(٥٤) الكتاب، ج ١، ص ١٢٧.

(٥٥) عبد القادر بوزيدة: نموذج المقطع البرهاني (أو الحجاجي)، ص ٣٠٤.

تلون وتنقل، وليس يسأله مسترشدا عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه، ولكنه وبّخه بذلك»^(٥٦).

يواصل سيبويه التوجه بحديثه نحو المخاطب وذلك بعد أن يعرض القضية الأساسية، ثم يروح يقدم الأمثلة الواصفة الشارحة الدالة على ما يقول باعتبارها حجة مدعمة لرأيه، مركزا في ذلك على حال الخطاب والمخاطب في قوله: «إنما هذا أنك رأيتَ رجلا في حال تلون وتنقل»، فهذه الحال الخطابية تقتضي سياقاً قولياً يخصها هو: «فقلت: أتميميا مرةً وقيسياً أخرى»، يقال هذا للذي لا يثبت على حال واحدة، ويعد استفهاما غرضه التوبيخ كما جاء في نهاية النص: «ولكنه وبّخه بذلك».

فسيبويه -هنا- يستدل بأمثلة محددة متعلقة بأحوال الخطاب والمخاطبين *les situations du discours*، يضبط فيه المقام التخاطبي (التركيب والعبارات)، ويرجح فيه العمل على النظر برأي طه عبد الرحمن^(٥٧).

يمكن الإشارة إلى العلاقة الوثقى بين هذه الأنماط الخطابية كما سبق الذكر، ومنها العلاقة بين النمط الإخباري والطلبى الاستفهامي؛ والخطاب الإخباري يحتضن «معلومات ومضامين زمانية أو مكانية أو حالة بتقنياته الخاصة بهذه المعلومات الدلالية، ولذلك عُدّ التركيب الإخباري جملة حاضنة للشيء تستخدم هذه الأدوات في السؤال عنه سواء أكان زمانا، أم مكانا، أم كيفية، أم سببا»^(٥٨).

وذلك ما يتجلى في الوظائف التي تؤديها: «متى وأنى وأيان وأين، وكم وما، ومن، وكيف...» وفي التوجه بالسؤال نحو المخاطب.

وقد شدّد سيبويه على أن الأمر والنهي يرتبطان

(٥٦) الكتاب، ج ١، ص ٣٤٣.

(٥٧) ينظر كتابه: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٠، ص ٤٦.

(٥٨) دلخوش جار الله حسين دزه يي: البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص ٢٦٣-٢٦٤.

proposition أو دحضها، وقد أثبت سيبويه هنا أنّ الأمر والنهي يرتبطان بالفعل وهما أقوى من الاستفهام باعتبارها قضية.

ويضيف سيبويه إلى ذلك أنّ الدعاء بمنزلة الأمر والنهي، وهي قضية معطاة أخرى، في قوله: «واعلم أنّ الدعاء بمنزلة الأمر والنهي؛ وإنما قيل دعاء لأنه استعظم أن يقول أمر ونهي، وذلك قولك:

اللهم زيذا فاغفر ذنبه، وزيذا فأصلح شأنه، وعَمراً لِيُجِزَهُ اللهُ خيراً.

وتقول: زيذا قطع الله يده، وزيذا أمر الله عليه العيش؛ لأن [معناه معنى] ليقطع الله يده. وتقول: أما زيد فسلام عليه، وأما الكافر فلعنة الله عليه؛ لأنّ هذا ارتفع بالابتداء»^(٦١).

إنّ الغرض من هذه الاستعمالات يتعدى البنية اللغوية الخالصة وما تقتضيه معايير الصحة في التركيب اللغوي إلى جانب معنوي آخر هو «الدعاء»؛ إذ المقام لا يقتضي الأمر والنهي لمن هو في منزلة أعلى تحتاج إلى الحرمة والإجلال، وإنما قيل دعاء لأنه استعظم أن يقال أمر ونهي كما قال سيبويه.

لقد انتهج سيبويه في عرضه للقضايا اللغوية المختلفة، فيما يتعلق بالأمر والنهي والدعاء والاستفهام وغير ذلك منهجا استدالياً يتميز - كما قال طه عبد الرحمن^(٦٢) - بخصائص صورية من تجربة وتدقيق وترتيب، ومن بسط للقواعد وتمايز للمستويات واستيفاء للشروط واستقصاء للعناصر. تبدي القراءة المتأنية لـ «لكتاب» أن كل هذه العناصر قد توفرت في خطاب سيبويه الاستدلالي البرهاني «التدرجي الذي تسبق فيه المفردات النتيجة»^(٦٣) بما توفر فيه من شروط نصية وتداولية واجتماعية وإقناعية واعتقادية^(٦٤).

(٦١) الكتاب، ١، ص ١٤٢.

(٦٢) ينظر طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص ٤٠-٤١.

(٦٣) ينظر: المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٦٤) ينظر: المرجع نفسه، ص ٣٥ وما بعدها.

بالفعل وهما أقوى من الاستفهام «لأن حروف الاستفهام قد يستفهم بها، وليس بعدها إلا الأسماء نحو قولك: «أزيد أخوك؟ ومتى زيد منطلق، وهل عمرو ظريف؟» والأمر والنهي لا يكونان إلا بفعل، وذلك قولك: «زيداً أضربْهُ، وعَمراً امْرُؤْ به، وخالداً اضرب أباه، وزيداً اشتر له ثوباً»، ومثل ذلك: «أما زيذاً فاقتله، وأما عمراً فاشتر له ثوباً، وأما خالداً فلا تشتم أباه، وأما بكراً فلا تمرر به»، ومنه: «زيداً ليضربه عمرو، وبشراً ليقتل أباه عمرو»؛ لأنه أمر للغائب بمنزلة افعل للغائب. وقد يكون في الأمر والنهي أن يبني الفعل على الاسم، وذلك قولك: «عبدُ الله اضربْهُ»، ابتدأت عبد الله فرفعته بالابتداء ونهبتُ المخاطب له لتعرفه باسمه، ثم بنيت الفعل عليه كما فعلت ذلك في الخبر»^(٥٩).

يلاحظ المتأمل في هذا النص لسيبويه أنه قدّم المعطى الأول الأساسي وهو: «أن الأمر والنهي يرتبطان بالفعل وهما أقوى من الاستفهام»، ثم يشرع في تقديم البرهان والحجة والأسباب التي أدت إلى ذلك من خلال الأمثلة التي استقاها من المشافهة وتنوعاتها في واقع الحياة الاجتماعية، رابطاً كل ذلك بتحقيق الوظيفة الانتباهية لدى المخاطب من أجل التعرف على موضوع الحديث وهو: «عبد الله اضربْهُ» الذي استحق أن يُرفع بالابتداء ويبني الفعل عليه.

أوضح عبد القادر بوزيدة^(٦٠) أن الأشكال المختلفة للنص البرهاني تعبر عن الظاهرة نفسها، وتهدف إلى التأثير على مواقف وسلوك المخاطب ودفعه إلى تقبل ملفوظ ما «نتيجة» وفق طرائق متنوعة، بالارتكاز على ملفوظ أو ملفوظات أخرى (معطاة / برهان / سبب). وأنّ المعطاة التي تقوم مقام البرهان تهدف بطبيعتها إلى تأكيد قضية

(٥٩) الكتاب، ج ١، ص ١٣٨.

(٦٠) ينظر: عبد القادر بوزيدة: نموذج المقطع البرهاني (أو الحجاجي)، ص ٣٠٦.

والملاحظ أيضا أن سيبويه قد افتتح نصه هذا بتوجيه تنبيهي نحو المخاطب بقوله: «واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي...». ليس في هذا النص فحسب، وإنما في نصوص أخرى كثيرة وبخاصة في الأبواب الأولى من الكتاب. وربما ذلك راجع إلى عادات العرب في كلامها؛ إذ يُستعمل هذا الأسلوب «اعلم، واعلم، وفاعلم»، وكذلك لأن المتكلم متأكد مما يقول، وربما أن سيبويه كان أحس بضرورة ذلك من باب التوطئة لما يعرضه من أفكارٍ تحتاج إلى أن تكون على التدريج يفهما المخاطبُ شيئًا فشيئًا بعد أن ينتبه إليها أولاً.^(٦٥)

ولا بد من الإشارة إلى أن كل هذه الأنماط الخطابية التي رأيناها تتأسس على حوارٍ بين المتكلم (سيبويه) ومخاطبٍ متخيّل، وذلك على مدار الكتاب وفي كل الأمثلة التي حفل بها الكتاب ومنها الأمثلة التي أوردناها في هذا المقام.

ولكن لم نجعله نمطا مستقلا لكونه متضمنا في الأنماط التي تم الحديث عنها، ثم إنَّ المخاطب المفترض لا يتحرك بنفسه؛ وإنما المتكلم هو الذي يحركه ويؤدي الدور الذي يفترضه المتكلم. ولذلك فإنَّ الخطاب يذهب من المتكلم نحو المخاطب في شكل أوصافٍ وأخبارٍ وسرودٍ وأدلةٍ وبراهين على قضايا مختلفة، ولا يعود الرد من المخاطب إلا كما يريد المتكلم في شكل سؤالٍ غالبا أو في شكل اعتراض أحيانا أخرى توقعها المتكلم وتخيّل المخاطب هو الذي سأل أو اعترض. وهذا أسلوب معمول به في بيئة سيبويه كما تبديه النصوص والشواهد.

ولكن لم نجعله نمطا مستقلا لكونه متضمنا في الأنماط التي تم الحديث عنها، ثم إنَّ المخاطب المفترض لا يتحرك بنفسه؛ وإنما المتكلم هو الذي يحركه ويؤدي الدور الذي يفترضه المتكلم. ولذلك فإنَّ الخطاب يذهب من المتكلم نحو المخاطب في شكل أوصافٍ وأخبارٍ وسرودٍ وأدلةٍ وبراهين على قضايا مختلفة، ولا يعود الرد من المخاطب إلا كما يريد المتكلم في شكل سؤالٍ غالبا أو في شكل اعتراض أحيانا أخرى توقعها المتكلم وتخيّل المخاطب هو الذي سأل أو اعترض. وهذا أسلوب معمول به في بيئة سيبويه كما تبديه النصوص والشواهد.

ولذلك قولك: سلام عليك، ولبيك، وخيرٌ بين يديك، وويل لك، وويح لك، وويسُّ لك، وويلة لك، وعولة لك، وخيرٌ له، وشرٌّ له، و﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ واللام من المصادر والأسماء.

وذلك قولك: سلام عليك، ولبيك، وخيرٌ بين يديك، وويل لك، وويح لك، وويسُّ لك، وويلة لك، وعولة لك، وخيرٌ له، وشرٌّ له، و﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ واللام من المصادر والأسماء.

وذلك قولك: سلام عليك، ولبيك، وخيرٌ بين يديك، وويل لك، وويح لك، وويسُّ لك، وويلة لك، وعولة لك، وخيرٌ له، وشرٌّ له، و﴿لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ واللام من المصادر والأسماء.

٥- مقام الابتداء:

يجد القارئ لـ«كتاب سيبويه» حضور الابتداء بوصفه مفهوما أساسيا في بناء النظرية اللغوية العربية، على مدار «الكتاب»، في نسق منظومته (٦٥) يصلح أن يكون بحثا مستقلا وما قُدِّم هنا يمثل إشارة فقط.

من الآية ١٨ من سورة هود.

ثم إن العرب لم تجعل «رعيا وسقيا» بمنزلة هذه الحروف، ولذلك تُجرى كما أجزتها العرب في كلامها ودرجت على استعمالها.

أذهب إلى أن مفهوم الابتداء عند سيبويه لصيق بالوظيفة المرجعية في خطابه التي أسس عليها «الكتاب» بما شمله من مفاهيم لغوية متعددة وطرائق استدلال وعرض قضايا مختلفة صنعت أصالة خطابه وحددت هويته، فقد اختلف نحو سيبويه عن نحو الزمخشري، فسيبويه أسسه على أولية الابتداء والزمخشري على أولية الفاعلية، وهذا يعني أن الطرق الإعرابية تقيم نظرها في نحو سيبويه على الجملة الاسمية، وتقييمه في نحو الزمخشري على الجملة الفعلية.^(٧٣)

٦- خاتمة:

محصول الحديث من كل هذا، أن المقام مبحث علمي يجمع بين أنساقٍ عديدة لغوية وثقافية عالجه سيبويه في كتابه بكفاية ودراية، وبمنهج علمي رصين استوعب زمانه وأسس للأزمة التي بعده.. وكشف بذلك أن المقام نسق معرفي تواصلية متجذر في التراث اللغوي العربي.

هذه قراءة حاولت البحث في كتاب كبير من نواحي كثيرة لغوية ومنهجية ومعرفية، بذل فيه صاحبه طاقة علمية من حيث التنظير والتطبيق والبناء، تستند على معرفة لسانية عميقة وخبرة ميدانية قائمة على الاستقراء والوصف والمشاهدة المباشرة لظواهر التخاطب والمشاهدة هو بها مدين لأستاذه «الخليل بن أحمد الفراهيدي» (ت ١٧٠هـ)، حتى إنها شكّلت نظرية لسانية قائمة بذاتها لها جهازها النظري ومنظومتها المفاهيمية والمصطلحية المشكلة للغة خطابها المتميز.

ويبقى الكتاب مفتوحًا للقراءة وتجديدها وللبحث والتقصي.

(٧٣) ينظر: حافظ إسماعيلي علوي وامحمد الملاخ: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، ص ٤٧.

فهذه الحروف كلها مبتدأة مبني عليها ما بعدها، والمعنى فيهن أنك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك، ولست في حال حديثك تعمل في إثباتها وتجزيتها وفيها ذلك المعنى، كما أن «حسبك» فيها معنى النهي. وكما أن «رحمة الله» فيه معنى رحمه الله، فهذا المعنى فيها. ولم تجعل بمنزلة الحروف التي إذا ذكرتها كنت في حال ذكرك إيهاها تعمل في إثباتها وتجزيتها، كما أنهم لم يجعلوا سَقِيًا ورَعِيًا بمنزلة هذه الحروف، وإنما تجريها كما أجزت العرب، وتضعها في المواضع التي وُضعت فيها، ولا تُدخَلُ فيها ما لم يدخلوا من الحروف...»^(٦٩)

نتبين من هذا النص المنظور النحوي المهم بأشكال اللغة وهيئاتها المختلفة المؤسسة على النظر العاملي، والمنظور البلاغي المؤسس على ربط الأشكال المعيارية بمقامات إنجازها ونيات متكلمها.^(٧٠)

يبدو أن هذه الأسماء تتعلق بممارسة العرب لكلامها، وابتدائها بهذه الأسماء ولبناء الكلام عليها، والمعروف أن «الأصل في الابتداء للمعرفة»^(٧١)، ولا يبدأ بالكرة إلا في مقامات ضرورية محددة. فيوجد «خرق قاعدي مقرون بانبعثات بنية دلالية محولة ومغايرة للبنية الدلالية المفهومة من الخطاب توحى بالثبوت والمعلومية، لامتلاك المتلقي علما وإدراكا بشأنها»^(٧٢).

ثم إن المسألة تتعلق بحال الذكر التي عليها المخاطب فهو لا يعمل في حال الحديث بها على إثباتها؛ لأنها ثابتة.

(٦٩) الكتاب، ج ١، ص ٣٣٠.

(٧٠) حافظ إسماعيلي علوي وامحمد الملاخ: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٤٤.

(٧١) الكتاب، ج ١، ص ٣٢٩.

(٧٢) دلخوش جار الله حسين دزه بي: البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ص ٣٨٣.